

2003

المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الاصاله "والتجديد: " الاسلوبية أنموذجا

خليل عوده
جامعة النجاح الوطني، r.journal@hebron.edu

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/hujr_b



Part of the [Arts and Humanities Commons](#)

Recommended Citation

"عوده, خليل (2003) "المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الاصاله والتجديد: " الاسلوبية أنموذجا
مجلة جامعة الخليل للبحوث- ب (العلوم الانسانية) - (العلوم الانسانية) - Hebron University Research Journal-B (Humanities)
Vol. 1 : Iss. 2 , Article 3.

Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/hujr_b/vol1/iss2/3

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Hebron University Research Journal-B (Humanities) - (العلوم الانسانية) - مجلة جامعة الخليل للبحوث- ب by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الأصالة والتجديد " الأسلوبية أنموذجاً "

خليل عوده

كلية الآداب - جامعة النجاح الوطنية

ملخص

يتناول موضوع البحث قضية المصطلح النقدي في الدراسات العربية بين الأصالة والتجديد، ويتخذ من الأسلوبية نموذجاً للدراسة، في محاولة لمعرفة جوانب التجديد في هذا المصطلح، مقارنة مع مصطلحات نقدية في الموروث النقدي، تقترب من مضمون هذا المصطلح، وربما تتساوى معه في الدلالة والمضمون، وبشكل خاص ما هو موجود في علم المعاني، الذي يعالج قضايا اللغة في النص ودلالاتها البلاغية.

Abstract

Critical Terminology in Contemporary Arabic Studies: Originality and Modernism - Stylistics as an Example

This paper examines critical terminology between tradition and experimentation, and takes up stylistics as an example, in an attempt to locate modernization in this area, comparing it to terminology in the critical heritage. Such terminology in its modern contexts perhaps approximates that in the critical heritage, especially in Arabic semantics which treats language problems in text and its rhetorical implications.

مقدمة

يتناول موضوع البحث إشكالية التعامل مع المصطلح النقدي الحديث، ويتخذ من الأسلوبية أنموذجاً للدراسة، في محاولة للربط بين المصطلح الحديث، وأصوله في الموروث النقدي والبلاغي.

ويرى البحث أن الحداثة لا تعني مجرد وضع مصطلح جديد لمضمون نقدي قديم، وإنما الاستفادة من مضمون المصطلح الجديد، وما فيه من عناصر إيجابية قادرة على تحليل النص الأدبي، والكشف عن جمالياته، والوصول بالقارئ إلى مستوى أعمق من الفهم، تضاف إلى العناصر الإيجابية الفاعلة في الموروث النقدي والبلاغي، ولا تشكل بديلاً عنها.

والأسلوبية من المصطلحات النقدية الحديثة، التي تركز على دراسة الظاهرة اللغوية في النص الأدبي، ومحاولة إيجاد صلة بين اللغة الفنية المشكلة للنص، والدلالات التي يمكن عن طريقها الوصول إلى المعنى الغائب منه، ولهذا تركز على استخدام الكلمات المفردة، وانتظامها في جمل، وانتظام الجمل في فقرات، وما يصاحب ذلك من استخدامات خاصة تفرض نفسها على النص، وتلفت نظر القارئ لها.

والمنتبع للمنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي، يلاحظ أن هذا المنهج لا يعد نقلة نوعية في مجال الدراسات النقدية الحديثة، فقد ركزت البلاغة القديمة على موضوع النظم، وعلاقته باللغة، وعلاقة ذلك بالمعنى، وهذا يتصل - بشكل أو بآخر - بموضوع علم المعاني.

وإذا كانت الأسلوبية الحديثة لا تقدم منهجاً نقدياً متكاملاً، فإنه في المقابل لا يمكن تصور منهج نقدي متكامل في الدراسات البلاغية والنقدية القديمة. والمنتبع لملاحظات عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز وحديثه عن علاقة اللفظ بالنظم، وعلاقة المعنى الظاهر بمعنى المعنى، وملاحظات السكاكي في فضل علم المعاني في معرفة خواص تراكيب الكلام، يجد فيها تأصيلاً جاداً للمفهوم الذي اعتمده أصحاب المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي.

ولا نقصد بذلك جعل علم المعاني بديلاً عن الأسلوبية بمعناها الحديث، أو جعل الأسلوبية بديلاً عن علم المعاني في إطار فهم القدماء، ولكن ما نقصده هو إمكانية ربط المصطلح الحديث - أيأ كان - مع مدلولاته في التراث العربي القديم. بهدف تعميق وعينا بالتراث والاستفادة من الدراسات المعاصرة، فالأمر لا يتعلق بمصطلح جديد، أو البحث عن مسميات جديدة، وإنما بالفائدة التي لا تلغي القديم لقدمه، ولا تأخذ بالجديد لجده.

إشكالية المصطلح :

تشكل الدراسات النقدية المعاصرة، نموذجاً جديداً من نماذج النقد العربي، التي تتجذب تارة نحو القديم، وتارة نحو الحداثة والمعاصرة، وفي الانجذاب الثاني تزدحم مصطلحات نقدية وافدة، بعضها مترجم، وبعضها معرب. وتختلف هذه المصطلحات في مفهومها ودلالاتها من باحث إلى آخر، حسب درجة وعيه بالمصطلح، ومنهجه في الدراسة، الأمر الذي يجعل الدراسات النقدية الحديثة تسير في اتجاهات مختلفة تحددها أدوات تعبيرية غير محددة، تحكمها مجموعة من العوامل التي تتصل بتنوع الثقافات والعلاقات القائمة بين الدراسات النقدية المعاصرة، ومباحث لغوية، وفلسفية، واجتماعية، ونفسية، وجمالية تفرض نفسها على دلالة المصطلح النقدي، وكيفية التعامل معه "ومن الملاحظ أن بعض المترجمين يُقدمون على الترجمة دون تسليح كاف بأدواتها ومطالبها، ولذلك يعمدون إلى الترجمة الحرفية أو الترجمة الركيكة، وهذه الترجمة - بخاصة في نقل المفهوم والمصطلح - تمثل أضعف الوسائل الاصطلاحية لأنها تحبس اللفظة في جمود عديم الفائدة. ومن نتائج الترجمة غير الدقيقة ومن نتائج التسرع والارتجال في وضع المصطلح أن صار المفهوم الأجنبي غامضاً عند وضعه مصطلحاً في العربية رغم أن دلالاته قد تكون واضحة في لغته الأصلية، وهذا ما يؤدي إلى شيوخ الإبهام والغموض"^(١).

وما يزيد المشكلة تعقيداً هو الانجذاب نحو المصطلح النقدي الوافد بكل تداعياته، وجعله أساساً في الدراسة النقدية المعاصرة، الأمر الذي يفقد - في كثير من الأحيان - إمكانية الاستفادة من الموروث النقدي على مستوى مقارنة المصطلح الوافد بالمصطلح القديم، أو استبداله بما هو موجود في التراث من مصطلحات نقدية معروفة، تسهل عملية الخطاب والتلقي في الدرس النقدي الحديث، وقد أشار د. محمد عبد المطلب إلى هذا في معرض حديثه عن مصطلح (الشعرية) الحديث، ورأى أن "مصطلح النظم الذي وصل به عبد القاهر الجرجاني إلى قمة النضج، يؤدي مهمة مصطلح الشعرية على وجه أدق. لأنه في أصوله الوافدة يقتصر على تمثيل الدراسة اللغوية للوظيفة الشعرية في أي خطاب لغوي شعرياً كان أم نثرياً". وهذا بالضرورة يرتبط بالناقد وقدرته في التعامل مع المصطلح، وفق ثقافته الخاصة، وقدرته على استيعاب القديم، والاستفادة من الحديث، وتوسيع دائرة هذه الثقافة لتشمل المحتوى الفكري " والمرجعيات لا تتحدد بثقافة الناقد أو بانحيازاته؛ وإنما تتعدى ذلك إلى فضاءات هذه الثقافة واشتباكاتهما، وكذلك إلى

١- أبو شاويش، حماد : مشكلة المصطلح في النقد الأدبي الحديث، مجلة كلية التربية - المجلد الأول، العدد الأول، يناير ١٩٩٧، ص ٢٠٥.

المواثيق والسنن والتواطؤات التي يشتغل فيها أو ضدها النقد بصفته الفاعلة في تغذية الذوق^(٢)، وبهذا تتشكل معضلة معنى المصطلح النقدي الذي يقترب أو يبتعد من المصطلح بحسب فهم الدارس له " فالناقد أحياناً يشرح مفهوم المصطلحات التي يستخدمها في دراسته في ضوء معرفته بالمصطلحات الغربية، وأحياناً يكتفي بربط المصطلح العربي بالمصطلح الأجنبي، كأن يكتفي بوضع الأصل الفرنسي أو الإنجليزي بجوار المصطلح العربي المقترح، وأحياناً نرى الناقد يستخدم المصطلح حسبما يعن له، واضعاً إياه في مواضع يفهم منها أنه يقصد مفاهيم يمكن التكهن بها من خلال الدلالة اللغوية للفظ الاصطلاحي، وحيناً رابعاً نرى الناقد يستخدم اللغة الأدبية في وصف الظواهر الفنية في العمل الأدبي، وبهذا فإن المفهوم الذي يمكن الإشارة إليه بكلمة واحدة يظل الناقد يوحى به عن طريق المجاز حيناً، والتشبيه حيناً آخر، وضرب الأمثلة حيناً ثالثاً^(٣)، وقد يجد بعضهم في المصطلحات الجديدة فرصة للثورة على المصطلحات التراثية القديمة، أو محاولة رفضها؛ الأمر الذي يبتعد بالدراسات النقدية الحديثة عن الأصول المكونة لثقافتنا الأدبية، ومناهجنا النقدية، ولا يعني ذلك أننا نرفض الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة، أو ما توصلت إليه مدارسهم في مجال إبداعات النقد، بل على العكس نحن نشجع على ذلك، ولكن على أساس الفائدة القائمة على أمرين :

أولهما: الاستيعاب الصحيح، والفهم الواعي لمناهج النقد الغربي ومصطلحاته المستخدمة في حدود اللغة العربية، ونماذج الأدب التي يمكن التطبيق عليها في هذه اللغة.

وثانيهما: عدم إهمال المخزون التراثي في مجال النقد العربي ومصطلحاته المستخدمة، فإذا كان المصطلح الوافد لا يختلف عن مضمون مصطلح تراثي قديم، فلا ينبغي التمسك بمصطلح جديد لمضمون قديم، إذ ليست الحداثة في المصطلح، وإنما في مضمونه وقدرته على الإفادة في تحليل النص، والوصول بالقارئ إلى فضاءات جديدة من المعرفة، والتفاعل مع النصوص الأدبية.

٢- الموسوي، محسن جاسم : مرجعيات نقد الشعر العربي الحديث في الخمسينيات، مجلة فصول - المجلد الخامس عشر، العدد

الثالث، ح٢، خريف ١٩٩٦، ص ٣٤.

٣- عبد الرحيم، محمد : أزمة المصطلح في النقد القصصي، مجلة فصول - المجلد السابع، العددان الثالث والرابع، إبريل -

سبتمبر ١٩٨٧، ص ٩٩، ١٠٠.

النص، وبذلك تتشكل القيمة الفنية للغة التي يتشكل منها النص، والتي يمكن بالمنهج الأسلوبي التعرف عليها من خلال وضع الكلمات في أنساق تعبيرية، ثم انتظام هذه الكلمات في جمل، وانتظام الجمل في فقرات، وتضافر هذه الأنساق مع المعنى. وبذلك تركز الدراسة الأسلوبية أصلاً على دراسة الجزئيات اللغوية في النص، للوصول إلى دراسة شاملة، أي أنها تبدأ من الجزء وتنتهي إلى الكل " ومن المهم الإشارة إلى أن تناول الأسلوب إنما ينصب على اللغة الأدبية؛ لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء، بما فيه من وعي واختيار، وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف، بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتقائية، والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز، وليس معنى هذا أننا نقيم حاجزاً صلباً بين اللغة الأدبية ولغة التخاطب، لأن الأولى تستمد وجودها - بلا شك - من الثانية، فتقيم منها أبنية وتراكيب جديدة في الصوت والكلمة والجمله، ثم القطعة بأكملها" (٧).

والتصرف في اللغة وفق نمط أسلوبي مكرر، يكسب هذا النمط ظاهرة مميزة في النص، تشكل أساساً لدراسة أسلوبية تعتمد رصد الظاهرة اللغوية وتحليلها، فمثلاً اعتماد الكاتب ضميراً بعينه في سياق النص وتكراره، يمثل نمطاً في أسلوب التعبير يعكس وعي الكاتب بلغته التي يشكلها، وقدرته على توظيف اللغة، واستغلال طاقاتها الإبداعية من أجل تقديم المعنى الذي يريده باللغة التي تعكس إحساسه بهذا المعنى، وقدرته على توصيله بالطريقة التعبيرية التي يريدها، ومثل هذا يقال في أنساق تعبيرية يتم فيها تقديم العامل على المعمول، أو بلغة البلاغة العربية، تقديم القيد على المسند إليه، وتوظيف الأفعال الماضية أو المضارعة، واستعمال أسلوب الحذف والتكثيف، إلى غير ذلك من الوسائل التعبيرية التي يعتمد عليها الكاتب في النص الأدبي، وتشكل مصدراً من مصادر الدراسة الأسلوبية، في وعي المتلقي مع اللغة التي يشكلها الأديب، ويجعل منها وسيلة خطاب أدبي يعتمد عليه أساساً في توصيل أفكاره وانفعالاته إلى الآخرين " فاللغة تدل في الأدب بكيفية من أهم خصائصها تراكم السنن اللغوية التي بدونها يستحيل ذلك التحول شرط التوظيف الأدبي للغة وضعف الصلة بين العلامة ومرجعها وانطماس " الشفافية " التي تربطها في الإبلاغ العادي حيث تهتم بالأشياء ذاتها بينما نهتم في الأدب بالنص. فالاهتمام بالبنية اللغوية ضروري، وكل مباشرة للنص وجب أن تنطلق من لغته باعتبارها وسيلة الأدب وغايته والنظام الذي يصرح أو يوحي بكل مضامينه" (٨).

٧- عبد المطلب، محمد : البلاغة والأسلوبية ، ص ١٨٦.

٨- صمود، حمادي : في نظرية الأدب عند العرب، ط النادي الأدبي الثقافي بجدة - المملكة العربية السعودية ، العدد ٦٤،

١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص ٢١٠.

جوانب النقص في الدراسة الأسلوبية :

قد لا تساعد الدراسة الأسلوبية - باعتبارها منهجاً مستقلاً في دراسة النص الأدبي - في تحقيق الغاية المرجوة من هذه الدراسة، والسبب في ذلك يرجع إلى جوانب النقص التي تصاحب الدراسة الأسلوبية كمنهج متكامل في دراسة النص الأدبي وتحليله، فهي تعتمد على دراسة الظواهر اللغوية بالقدر الذي تحققه هذه الدراسة في تتبع خواص اللغة، واكتشاف دلالاتها الرامزة، فإنها في المقابل لا تعطي تصوراً كاملاً لدراسة نقدية تعالج النص من جميع جوانبه، واتجاهاته الفنية " وإذا قلنا إن " الأسلوبية " بكشفها عن التباين الأسلوبي إنما نقودنا إلى عمليات التوصيل، وتلفتنا إلى طبيعة الرسالة " في النص الأدبي، إذا قلنا هذا كله فإن علينا أن نلاحظ أن الأسلوب في ذاته، لا يمكن أن يكون مساوياً لجميع الظواهر اللغوية للنص الأدبي، ومن الممكن أن نقول إن هناك ظواهر أخرى كثيرة، لا تستطيع " الأسلوبية " بوضعها الحالي أن تتعامل معها، بسبب ما في مناهجها نفسها من قصور. ومن أهم الظواهر التي عجزت المناهج اللغوية، المتمثلة في الأسلوبية عن معالجتها، ظاهرة الأبنية البلاغية التي تفوق التركيب الواحد، ومنها الأبنية العليا الشاملة في النصوص الأدبية ^(٩).

ومن جوانب النقص في الدراسة الأسلوبية عدم التفاتها إلى الجوانب الأخرى المكملة للنص الأدبي، والتي تتصل بجوانب تخص الرصيد المعرفي لكاتب النص، من حيث علاقاته بالمجتمع، والمؤثرات المختلفة منه، أو علاقة النص بغيره من النصوص، أو الأنماط الأدبية بشكل عام، الأمر الذي يفقد الدراسة بعدها المعرفي الشمولي على مستوى الجنس الأدبي الواحد، أو على مستوى الأديب، والمؤثرات المشكلة لشخصيته الإبداعية، أو الإنتاجية " إن اقتصر الدراسات الأسلوبية على الظواهر اللغوية والبلاغية، وأنماط طرق الأسلوب العادي ... ألخ، قد أدى بوضع " الأسلوبية " في طريق مسدود، أو هو كذلك في الوقت الحاضر على الأقل ولا سبيل، والأمر كذلك، أمام الأسلوبية الانفراد، دون النقد الأدبي بالأحكام الأدبية، ذلك لأن " الأسلوبية " حددت نفسها منذ البداية بالأحكام اللغوية. ولكن الأدب ظاهرة شمولية تجمع كل الظواهر الاجتماعية والثقافية والحضارية ... ألخ، ولا سبيل للأسلوبية بأدواتها اللغوية البحتة أن تطمح إلى إطلاق الأحكام الاجتماعية والثقافية، أو سبر أغوار رؤى الكاتب الاجتماعية وغيرها، بأدواتها اللغوية الجزئية في النهاية ^(١٠).

وقد تتحول الدراسة الأسلوبية عن هدفها الرئيس في رصد الظواهر اللغوية في النص الأدبي، وتوظيفها في عملية التحليل؛ إلى مجرد عملية إحصائية تفقد قيمتها الفنية، وقدرتها على نقد النص الأدبي وتجليته للقارئ " وربما لقي المنهج الإحصائي

٩- عباد، محمود : الأسلوبية الحديثة محاولة تعريف، ص ١٢٩.

١٠- المرجع السابق نفسه، ص ١٣٠.

الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتركيب الكلام، التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء الصادرة عن سواهم^(١٧).

وإذا كانت الأسلوبية الحديثة لا تقدم منهجاً متكاملاً في الدراسات النقدية، يمكن الاعتماد عليه في تحليل النصوص الأدبية، فإنه في المقابل لا يمكن تصور وجود منهج متكامل في الدراسات البلاغية والنقدية القديمة، "ولا شك أيضاً أن مفهوم (النظم) عند "عبد القاهر" قاصر عن أن يكون نظرية في "النصوص الأدبية" بشكل عام، ولكن هذا القصور نفسه موجود بدرجات متفاوتة في اتجاهات "الأسلوبية"^(١٨).

وإذا كانت الأسلوبية تتعامل مع الظواهر اللغوية في تمييزها داخل النص وصولاً إلى المعنى، واختلاف التركيب المعتمد على التقديم أو التأخير، والتكرار، واستخدام صيغ لغوية خاصة، فإن هذا لا يبتعد كثيراً عن ملاحظات عبد القاهر الجرجاني عندما ربط بين الكلام وأصول علم النحو "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : "زيد منطلق، وزيد بنطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له"^(١٩).

وهي فكرة لا تختلف كثيراً عن المبدأ الذي تعتمده الأسلوبية الحديثة في تعاملها مع هذه الأنساق اللغوية، واختلاف تركيبها أو نظمها بحسب المعنى الذي يمكن التوصل إليه، فالعبرة ليست في اللفظة بحد ذاتها، وإنما في المعنى الذي يمكن أن تؤديه في السياق العام، ذلك أن "الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من

١٧- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي : مفتاح العلوم، ط دار الكتب العلمية - بيروت، ص ٧٠.

١٨- أبو زيد، نصر : مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في ضوء الأسلوبية، مجلة فصول - المجلد الخامس، العدد الأول ١٩٨٤، ص ٢٣.

١٩- الجرجاني، عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص ٦٦، ٦٧.

فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم، والدليل على ذلك أنا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها، لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالاته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرف بها "(٢٠). فهذا الذي ينتهي إليه عبد القاهر الجرجاني " يستند إلى نظرية في اللغة أرى فيها ويرى معي كل من يمعن النظر، أنها تماشي ما وصل إليه علم اللسان الحديث من آراء. ونقطة البدء نجدتها في آخر " دلائل الإعجاز " حيث يقرر المؤلف ما يقرره علماء اليوم من أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات (System des rapports). على هذا الأساس العام بنى عبد القاهر كل تفكيره اللغوي الفني "(٢١).

ويؤكد د. مندر على الصلة الوثيقة بين أفكار عبد القاهر الجرجاني، ومدارس التحليل اللغوي المعاصر، من حيث توظيف اللغة في خدمة المعنى، والوصول بها إلى الغاية المرجوة، من خلال الألفاظ المشكلة للغة "ونحن لا نستخدم ذلك اللفظ لنحرك الصورة الذهنية تحريكاً نريده لذاته، وإلا كنا مجانين، وإنما نفعل ذلك لأننا نعتزم أن نخبر عن "الرجل" بشيء ما، وهنا يلحق الجرجاني بأكبر مدرسة حديثة في تحليل اللغة، أعني مدرسة العالم، السويسري الثبت رأس علم اللسان الحديث فرديناند دي سوسير F.de Saussure ثم اللغوي الفرنسي الذائع الصيت أنتوان مييه A. Meillet^(٢٢).

والاعتماد على اللغة في فهم النص - كما نقرر الأسلوبية الحديثة - ليس جديداً في الدراسات النقدية والبلاغية، فأشارت عبد القاهر الجرجاني، تعد تأصيلاً لهذا المفهوم الذي اعتمدته أصحاب المنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي "والأمر يكاد يختلف إلى حد كبير إذا نظرنا إلى الدراسة البلاغية التي تستمد عطاها من النحو الإبداعي، وإذا غرضنا النظر عن الدراسات الجزئية السابقة على عبد القاهر الجرجاني فسوف نجد "دلائل الإعجاز" بداية لتحرك صحيح نحو نظرية لغوية في فهم النص الأدبي، ينتهي بها الأمر إلى نوع من التركيز حول دراسة الأسلوب في ذاته من خلال مفهوم النظم، وهو مفهوم اعتمد على التركيب اللغوي الذي يتصل باللفظ المنطوق والكلام النفسي^(٢٣). وهذه الملاحظات النقدية التي أدركها عبد القاهر الجرجاني من خلال مفهومه للنظم، جعلت الدكتور شفيع السيد يقرر بأن عبد القاهر

٢٠- المصدر السابق نفسه، ص ٣٤٠.

٢١- مندور، محمد: في الميزان الجديد، ط دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة، ص ١٨٥.

٢٢- المرجع ص ١٨٦.

٢٣- عبد المطلب، محمد : البلاغة و الأسلوبية، ص ٢٦٠.

الرجاني "سابق - في عالمه النقدي الرحب - لموكب الدراسات الأسلوبية المعاصرة" (٢٤).

وفي سياق آخر من بحث عبد القاهر الرجاني في العلاقة بين اللفظ والنظم تعمق كثيراً في خصوصية المعنى، وأدرك العلاقة القائمة بين المعنى الظاهر، ومعنى المعنى الذي يمكن التوصل إليه عن طريق تجاوز ظاهرة المعنى في اللفظ، إلى خصوصية المعنى فيما وراء اللفظ "وإذ قد عرفت هذه الجملة فيها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ و الذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر" (٢٥). وهذا يعني محاولة إدراك المعنى ليس - فقط - من خلال التركيب المباشر لمفردات اللغة، وإنما من خلال العلاقات اللغوية المتبادلة بين هذه المفردات "فهذه المجموعة المتداخلة من العناصر المفضية إلى معنى المعنى إنما تسلك النشاط اللغوي الخاص (نشاط المتكلم في كل حالة على حدة، ونشاط المخاطب في هذه الحالة) في إطار النشاط اللغوي العام بما هو انعكاس لمستويات مختلفة من وعي المجتمع بوظيفة اللغة فيه. ذلك بأن نظرية معنى المعنى ليست نظرية في الإنشاء الكلامي بقدر ما هي تشخيص لظاهرة في الاستخدام اللغوي، معينة لمستوى متقدم من هذا الاستخدام" (٢٦).

وفي الدراسات البلاغية القديمة، يؤكد السكاكي فضل علم المعاني في معرفة خواص تراكيب الكلام، وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن الرجوع بالأسلوبية إلى الأصول الأولى في الدراسات البلاغية القديمة، ونقصد بذلك علم المعاني الذي يتعامل مع البنية التركيبية للجملة، وعلاقتها بالمعنى "إن التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه ضرورة لكن لا يخفى عليك حال التعرض لها منتشرة فيجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار، ثم حمل ما عدا ذلك عليه شيئاً فشيئاً على موجب المساق والسابق في الاعتبار في كلام العرب" (٢٧).

وعند مقارنة علم المعاني بعلمي اللغة والنحو، على أساس أنه يعتمد عليهما أصلاً في تركيب الكلمات وبناء الجملة، ويخرج من خلال توظيفهما إلى معان تتجاوز مجرد التركيب الشكلي الظاهر، إلى دلالات غير مباشرة، تفرضها خصوصية السياق، فإن هذه المقارنة تحيل القارئ إلى تساؤل عن فائدة علم المعاني، باعتباره يعتمد أصلاً على النحو واللغة، ويجب بهاء الدين السبكي على ذلك قائلاً "كلا إن

٢٤- السيد، شفيق: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، ط دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦م، ص ٢٢.

٢٥- الرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص ١٧٥.

٢٦- اسماعيل، عز الدين: قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الرجاني، مجلة فصول - المجلد السابع، العددان الثالث والرابع، إبريل - سبتمبر ١٩٨٧، ص ٤١.

٢٧- السكاكي، أبو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، ص ٧١.

والدرس البلاغي "لكننا قد نجد من ناحية أخرى محاولة للمواءمة بين معطيات بعض الفروع المتطورة في الدراسات اللغوية والأدبية والفنية، وبين بعض الأسس في علوم البلاغة التقليدية، يحدث ذلك على نحو خاص عندما تثار بعض قضايا "علم المعاني" وهو علم ينتمي أساساً إلى علم النحو الجمالي، في ضوء دراسات علم اللغة والدراسات النحوية الحديثة والدراسات الأسلوبية"^(٣١).

ولا يعني ذلك أن علم المعاني يعد بديلاً عن الأسلوبية بمعناها الحديث، كما أن الأسلوبية لا تعد بديلاً عن علم المعاني في إطار فهم القدماء، أو فهمنا له، ولكن ما يمكن أن نخلص إليه هو إمكانية ربط المصطلح الحديث - أيأ كان - مع مدلولاته في التراث العربي القديم، بهدف تعميق وعينا بالتراث، وتقريبه إلى الدارس من خلال النهوض به ليستفيد من الدراسات المعاصرة، التي تجعله أكثر ملاءمة لروح العصر، وليس مجرد الاعتماد عليه، ورفض كل ما هو جديد، فالقضية ليست بالجديد لجذته، أو بالقديم لقدمه، وإنما وجه الاستفادة يأتي من التأسيس على دراسات سابقة فيها من الصواب ما فيها، وفيها من الخطأ ما فيها، لتُكمل ما بدأ به الأوائل وفق تصورات جديدة، ليس في المصطلح فحسب، وإنما في الدلالة والمضمون أيضاً، وبذلك نكون قد بدأنا الدراسة مستعينين بأسس ثابتة يمكن تطويرها، وليس من نقطة البداية، التي تجعلنا نعود إلى البدايات الأولى كلما وجدنا مصطلحاً جديداً يفاجئنا بمفاهيم هي أصلاً موجودة في تراثنا النقدي والبلاغي القديم.

"فمن المؤكد أنه حدث تداخل بين اختصاصات البلاغة القديمة والأسلوبية الحديثة، غير أن البلاغة لم تعد قادرة على الاحتفاظ بكل حقوقها القديمة، التي كانت تتاسب فترة معينة من ماضيها، والتي يجب على الباحث في الأسلوبية أن يضعها في اعتباره، وأن يحاول تعميقها على ضوء المناهج الجديدة، وبهذا يمكن للنقد أن يتصل بالأسلوبية في محاولة الكشف عن المظاهر المتعددة للنص الأدبي"^(٣٢).

ونحن لا نريد أن نفترض مصطلحاً بديلاً للأسلوبية بمعناها الحديث، ولكن نريد تحديد معناها، وعلاقتها بما تم تأصيله في التراث النقدي والبلاغي، وعندها يمكن الحكم عليها، وعلى مدى صلاحيتها كمنهج نقدي جديد يمكن الاعتماد عليه أو استبداله بما يتلاءم مع الأسس التي تم اعتمادها، والمتغيرات الجديدة التي يمكن إضافتها، فالقضية ليست قضية مصطلح جديد يمكن أن نتبناه، وأن نعتمده باعتباره كنقطة مفصلية جديدة في الدرس البلاغي والنقدي، بخاصة وقد عرفنا أنه ليس منهجاً متكاملًا، وإنما فيه قدر كبير من النقص وعدم الكفاية ليقوم بدور الريادة في مجال النقد والتحليل؛ صحيح أنه يقدم بعض التصورات الجديدة والمفيدة في

٣١- درويش ، أحمد : النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي ، ط دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٤٠.

٣٢- عدد المطلب، محمد : البلاغة و الأسلوبية، ص ٣٥٤.

والسياق في العمل الأدبي، لا يمكن أن يستقيم في لغة وظيفية محددة وإنما يكتسب خصوصية استخدام اللغة، وخروجها عن النمط المألوف، واعتمادها وسائل فنية، أشار إليها البلاغيون العرب القدماء في معرض حديثهم عن السياق "وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبد القاهر الجرجاني قد أكد قبل ريتشارد وغيره من النقاد الغربيين المعاصرين أهمية السياق الذي وجدت فيه الاستعارة، وبين أن المبالغة التي تدعى للاستعارة ليست في المعنى نفسه الذي يقصد إليه المتكلم، ولكن في طريقة إثباته للمعنى وتقديره إياه. ورأى أن المحاسن التي هي السبب في النظم وهي الاستعارة والتمثيل والكناية، وضروب المجاز المختلفة تشكل العناصر التصويرية للمعنى، وهذه المحاسن التي ينشأ عنها النظم تشكل العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ وهي مواطن البلاغة، وهو ما عبر عنه بالنظم، فلا تكون للكلمة مزية إلا وفق موقعها من الكلام، وتأزر دلالتها مع جاراتها الداخلة معها في التركيب، لأن الكلمة قد تقبح في موضوع، وتحسن بنفسها في موضوع آخر، والذي يحدد ذلك هو السياق، ولا شيء غيره" (٣٦).

وتأسيساً على ما سبق، فإن مصطلح الأسلوبية لا يمكن أن يؤخذ على أنه كشف جديد لشيء غير معروف أصلاً، فلدينا من التراث النقدي والبلاغي ما يقترب من مفهوم الأسلوبية، أو يؤصل لها، وربما تكون الاستفادة منه أكبر من الاستفادة مما هو موجود في الأسلوبية، وكل ما يحتاجه الدارس هو كيف يوظف التراث توظيفاً جديداً، وفق المتغيرات التي واكبت مختلف مجالات الحياة، ويستفيد مما هو موجود أصلاً، وما يمكن أن يستجد، ويستفيد من التجربتين، ولا يجعل لأحدهما سبقاً على الآخر، فالأمر لا يتعلق بمصطلح جديد، أو البحث عن مسميات جديدة، وإنما بالفائدة التي لا تلغي القديم لقدمه، ولا تأخذ بالجديد لجديده.

٣٦- أبو العدوس، يوسف: الاستعارة في النقد الأدبي الحديث "الأبعاد المعرفية والجمالية" - الأهلية للنشر والتوزيع - الأردن،

ط ١ - ١٩٧٧، ص ١١٧، ١١٨.

